من كتب الشرق والغرب

MACHINE ET HUMANISME

ETIEMBLE

الآلة والدراسة البشرية

يؤكد ت. ا. لورنس . T. E. Lawrence فى وثيقة من أهم الوثائق التى خلفها . وهى خطاب (يعتبر إلى حد ما موجز حياته) كتبه قبل موته ببضعة أسابيع إلى روبرت جريفز R. Graves فى فبراير سنة ١٩٣٥ ، أنه يعتبر أهم فترة فى حياته تلك التى رصدها فى خفاء للعناية بالآلات الطائرة ولتحسينها حين عمل ميكانيكيا بسلاح الطيران الملكى R. A. F. . ذلك لأنه قال : أهم شئ فى اعتقادى هو الآلة . The key-word, I think is machine . وقبله نزل عبقرى آخر ، الشاعر أرتور رامبو A. Rimbaud ، عن المجد الذى كانت تؤهله له آثاره الأدبية ، مفضلا أن يختفى فى الحبشة حيث وقف نفسه على الصناعة . كلا البطلين شهد للآلة واختار أن يعيش لها وأن يموت لها .. ولا شك أن ذلك الموت الذى لقيه لورنس حين صرعته « بوانرج » ، دراجته البخارية ، التى أحبها وأحبته (كانت بوانرج تحب لورنس حتى إنها كانت تقطع حين يركبها عشرة كيلو مترات فى الساعة أكثر مما تقطع إذا ركبها أى شخص آخر .) لاشك أنه كان بالقياس إليه خيراً من أى موت آخر .

ولو قد سأل إنسان اليوم أبا الهول لأجابه وهى الآلهة الاجابة الخالدة : الانسان . فالانسان هو إلى الأبد مسألة الانسان . وسيبقى الانسان الى الأبد الجواب على أسئلة الانسان ، بحيث إن موضوع القوة المزدوجة الآلة — الانسان يعتبر من أمهات المسائل التى نستطيع أن نعمل فيها فكرنا إعمالا مثمراً . وكل دراسة بشرية تهمل ذلك ، لا قيمة لها . ولو فحصنا الطرز الحديثة فى السيارات الأمريكية لرأينا أنها قد صممت بحيث تواءم كل المواءمة بين حاجات الانسان وضرورات الميكانيكا . فما من ذراع آلى ، وما من مسافة بين ذراعين ، إلا درست بعناية لتستجيب فى نفس الوقت لمقتضيات المحرك ولراحة السائق . وكذلك لو فحصنا الطائرة وقارنا بين الراحة التى يجدها فيها المسافرون اليوم وبين التعب والأزيز والمخاطر التى كان يتعرض لها ركاب الطائرات منذ ربع قرن ، لأخذنا العجب : كيف استطاع الانسان أن يلائم بين علمى الميكانيكا والحياة بمثل هذه السرعة ؟ ولندخل فى مصنع غزل أو مصنع صهر أو فى أى من تلك المصانع الضخمة حيث يعمل آلاف من العمال طيلة ثمانى ساعات فى اليوم ، فسنرى عندئذ أنه لم يبذل من الجهد للملاءمة بين الآلات والناس عشر ما بذل

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

لتنظيم العلاقات بين آلات الترف وبين من يستخدمونها . فلابد إذن من قيام دراسة بشرية صحيحة لتحاول فهم أسباب هذا التناقض . ولابد من أن تعمل أيضا لازالة هذه الأسباب .

وتلك هى المهمة التى اضطلع بها جورج فريدمان فى مؤلفه المثلث « الآلة والدراسة البشرية » . وقد عالج فى أول جزء « أزمة التقدم »[١] وبقى هذا الجزء إلى اليوم ، بعد اثنى عشر عاما من تأليفه ، كتابا صحيحا . وثانيهايدرس : «المشاكل البشرية فى الصناعة الآلية »[٢] ، أى يدرس : التعب ، والأوتوماتيكية فى الصناعة ، والتعقيل ، والحوادث ، ومذهب تايلور Taylorisme الخ . . . وهو يقصر بحثه وتحليله على المصانع الكبرى أى على العلاقات بين الانسان وآلات الانتاج ، تاركا لجزء ثالث يعده الآن بعنوان : « مقالة عن الحضارة الصناعية » مشكلة دراسة البيئة التى تنمو فيها هذه الحضارة المشتملة على الآلات الحديدية ، والسيارة ، والطائرة ، والبرق والتليفون ، والآلات الناطقة ، والسينما ، والراديو ، والتليفزيون .

وقد نال فريدمان — الحائز لدرجة الأجرجاسيون فى الفلسفة والأستاذ بالمعهد الوطنى للفنون والصناعات — بكتابه عن ليبنتز وسبنوزا شهرة واسعة فى فرنسا كمؤرخ للفلسفة . أما كتابه عن روسيا السوفيتية : « من روسيا المقدسة إلى الاتحاد الروسى للجمهوريات السوفياتية U. R. S. S. » الذى يعد من خير ما كتب فى هذا الصدد فقد غزا له جمهوراً أوسع . ولكن فريدمان سيحتل دون شك مكانا ممتازاً فى تاريخ الدراسة البشرية بفضل مؤلفه عن «الآلية machinisme » وليس ذلك لأنه أول من كتب فى هذا الموضوع . (لقد أنفق فى دراسات آثار من سبقوه فى هذه المادة فترة لا تقل عن عشر سنوات . فدرس مذهب تايلور ، والسلطة الصناعية technocratie ، والتنظيم العلمى للعمل . . . الخ) كلا ! وإنما لأنه أضاف إلى معلوماته النظرية وإلى تكوينه الفكرى ، تجربة عملية فى عامى ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ حين تعلم استعمال الآلات الصناعية (الدوارة tour ، والقابضة المستعملة للبرد étau-limeur ، والمسحاة raboteuse ، وآلة قلوظة الثقوب fraiseuse) وتلك تجربة عملية عن الآلات وعن نفسية العمال لم تكن أية دراسة تستطيع أن تهبها له . أضف إلى ذلك أنه من بين تلك القلة النادرة من العقليات التى لا يفسد فكرها أى تعصب أو أية مصلحة : فقد ولد فى وسط الثروة وأنفق شطراً كبيراً من أمواله لمصلحة العمال . وهو إذا كان يسخط اليوم على التفكك الراهن فى الاقتصاد الرأسمالى ، وإذا كان يفضل عليه اقتصادا من نوع اشتراكى ، فليس علينا إلا أن نقرأ كتابه عن روسيا ، أو كتابه عن المشاكل البشرية للصناعة الآلية ، لندرك أنه ليس من أولئك الذين يكتفون بالموجز من الاجابات . بدأ فريدمان — كما كان يتوقع — بدراسة مذهب تايلور Taylor كما ورد فى كتابى : « إدارة المصانع » *La direction des ateliers* ، «قاعدة الادارة العلمية للمصانع» *Principe d'organisation scientifique des usines* وهذه هى النتيجة التى يقررها «إن مذهب تايلور الذى يدعى أنه علم ، ليس فى الواقع —

(١) طبعة Gallimard سنة ١٩٣٦ .
(٢) طبعة Gallimard سنة ١٩٤٧ .

إذا وضعنا جانبا المزايا التى أتى بها ، وهى مزايا تتعلق فقط بالميكانيكا التطبيقية وبصناعة المعادن — إلا نظاما محسنا للوسائل الكفيلة بزيادة متوسط الانتاج للعمال والآلات . » كان تيلور مهندسا عظيما ، ولم يزد شيئا عن كونه مهندسا . فهو لم يفهم قط أن لعالم الحياة ولعالم النفس قولا فى هذا الصدد بقدر ما للمهندس وما لرئيس العمال . وقد غزت آراؤه — مع الأسف — عدداً عظيما من المصانع فى أوربا وفى أمريكا . وكان شر تلك الآراء هو بالضبط أعظم معين لها : فالنظام الذى يضاعف إنتاج الآلات و إنتاج العمال دون أدنى حساب للعمال أنفسهم هو « نظام بال كان يتفق وحاجات مرحلة معينة فى الرأسمالية العالمية . » وقام المؤلف بعد ذلك بتصحيح القواعد الأولى فى مذهب تايلور ، وذلك بفضل دراساته الدقيقة عن التعب فى الصناعة ، والراحة وأثرها ، ودرجة الحرارة فى المصانع ، والضوء ، والتهوية ، وعن الحوادث أثناء العمل وأسبابها . أى إنه وجه همه إلى دراسة « العوامل الانسانية » .

« كلما أتيحت فرصة للعلماء الذين يدرسون حقائق الصناعة والذين يمتزجون بها ، تراهم ينكرون النظرية الصناعية القائلة إن السرعة والانتاج هما الهدفان الوحيدان ، وتراهم لا يهملون مطلقا دراسة التكوين الجسمى والنفسى للعامل . والأساس لديهم هو العمل على توفير راحة العامل الجسمية والنفسية ، فهم يدركون شدة الاتصال بينهما . » وهكذا يختفى الانسان — الثور مثل تايلور الأعلى ، ويحل محله — بفضل دراسة فنية نفسية أكثر علما — الانسان الحى ، بقوته المتوسطة ، بآلامه وبأفراحه . وهذه الدراسة النفسية الفنية تأمل أن تضاعف فى الوقت عينه وبنفس السبيل ، الراحة للعمال والفائدة لدور الصناعة . ونستطيع بعملية حسابية بسيطة أن نثبت أنه إذا كان خفض ساعات العمل من ١٢ إلى ١٠ ساعات ثم من ١٠ إلى ٨ ساعات فى اليوم يزيد فى الوقت نفسه الانتاج فى الساعة والانتاج اليومى ، فان زيادة الانتاج فى الساعة لو خفض العمل من ٨ إلى ٧ ساعات أو من ٧ إلى ٦ ساعات — وهى زيادة مؤكدة — لن تكفى لزيادة الانتاج اليومى . وقد أتاحت عملية حسابية بسيطة لاحدى دور الصناعة الأمريكية أن تلاحظ أنه بزيادة نفقات الأنارة بمقدار ٢٨٠٠ دولار فى السنة أمكن لها أن تخفض ما تدفعه من تعويضات للمصابين من العمال بمقدار ٦٢٠٠ دولار . و إننا نجد فى هذين المثلين أن فائدة الرأسماليين تتفق وفائدة العمال . ومع أن هذه الدراسة الفنية الصناعية — التى درست بصفة خاصة فى انجلترا — أقل قسوة من مذهب تايلور الأمريكى ، فهى على كل حال مخطئة حين تفترض وجود انسجام اقتصادى بين مصالح دور الصناعة ومصالح العمال . فهى إن قدرت من ناحية ما الطبيعة الحيوية للانسان أهملت من ناحية أخرى البحث « فيما إذا كان العامل يعمل بنفس الطريقة فى مختلف المصانع التى يمر بها وفقا للعلاقات التى يصطنعها بينه وبين زملائه ورؤسائه والمنظمات المهنية المشترك بها ، أو بعبارة مختصرة فيما إذا كان جو العمل والانتاج لا يتعلقان بشروط أخرى تتعدى نطاق الحدود النفسية والعضوية للجسم الانسانى . » والمشكلة الأخرى هى مشكلة العمل على وتيرة واحدة ، مشكلة آلية الصناعة ، والعمل على نظام السلسلة à la chaîne ، والمهارة الفنية وانحطاطها . وستبقى إلى الأبد عالقة بأذهاننا صورة

شارلى شابلن فى شريطه «العصور الحديثة» حين كان عمله — وهو إدخال مسمار مبروم فى ثقب — يحصره حصراً نفسانيا حتى لقد كان يستمر بعد خروجه من العمل فى تأدية هذه الحركة فى الهواء أو فى الضغط على أزرار السترات التى يراها . فما العمل ؟ أنسخر مع هنرى فورد من تلك النفوس الحساسة التى ترثى لمن يقتصر عمله طيلة حياته على ثلاث حركات ؟ أنصل معه إلى هذه النتيجة : « سمعت خبراء يتحدثون عن هذا العمل على وتيرة واحدة ويقولون إنه يقتل العمال أدبيا أو باديا ، ولكن هذا يخرج عن نطاق بحوثى . » فى الواقع أن الانفعال المضاد لهذا السير على وتيرة واحدة يختلف اختلافا بينا من عامل إلى آخر . فخير العمال وأكثرهم نفاذ بصيرة يألمون أكثر من غيرهم . أما العامل اليدوى العادى فانه يجد راحة فى ذلك . فالنظام الحالى يبعد إذن العمال الموهوبين . ويختبر العمال فى بعض المصانع الأمريكية عدة اختبارات قبل استخدامهم ويرفض أذكى المتقدمين . وقد ذهبت شركة المطاط الأمريكية إلى حد أن استخدمت : « فتيات ناقصات العقل . » وبهذا حصلت على نتائج باهرة .

وشكا القوم فى أستراليا منذ قليل قلة عدد الصم البكم لأنهم يستغرقون فى عملهم لا يشغلهم عنه شاغل . وأمام هذا الانحطاط لا نضحك الضحك العادى وإنما نضحك ضحك المجنون . هذه هى إذن الحياة على الطريقة الأمريكية ، حضارة تلقى عن قصد خير العناصر إلى عرض الطريق ، وتكافىء ذوى العقول الناقصة . ولكن ما العمل ؟ هل هناك شئ نستطيع عمله ؟ أم هل نحن أمام إحدى صور التناقض التى لا تستطيع عقولنا لها حلا ؟

يضع فريدمان ثقته « فى مذهب تقسيم العمل »، وذلك دون أن ينتقص من خطورة المسألة وصعوبة مداواتها . فلا يصح أن نتهم الآلية الصناعية بأكملها ؛ فهذه الآلية — التى يؤدى إليها تقسيم العمل — يجب أن تشجع حين تخفف عن العامل أعباء الأعمال المرهقة وخاصة فى أشق المجهودات العضلية . فمن يستطيع أن ينكر أن الآلات الأوتوماتيكية الخالصة — كالآلات التى تحيل مصهور السكر إلى صناديق مقفلة مضبوطة الوزن دون أن تمسسها يد عامل — قد عملت هى أيضاً فى تحرير العمال وتخفيف أعبائهم ؟ فى مثل هذه الأحوال يصير الانسان خالقا ، يصمم ويحرك ويلاحظ . وهكذا لو دفعنا الآلية (الأوتوماتيكية) إلى أقصى درجاتها لوفقنا بين الآلة البشرية والآلة الحديدية . ثم إن تصميم هذه الآلات الدقيقة وصناعتها والعناية بها تفتح الباب للأذكياء من العمال الذين تؤودهم عبودية العمل على نظام السلسلة . عندئذ تنشأ هيئة فنية جديدة تعطى الخيار مايستحقونه من مباهج عملهم . وهكذا تستطيع الآلة أن تنفع الانسان .

نعم هذا صواب ، والبطالة ؟ إذا كانت النتائج النظرية لمذهب تقسيم العمل تخدعنا فجدير بنا أن نذكر أن القيمة العملية لهذا المذهب مابرحت اليوم مشكوكا فيها . نعم ! يمكننا أن نتوقع ، كما توقع فورد ، تنقلات دائمة فى طبقة العمال ! على أن ذلك ليس إلا حلما ، وحلا يمليه الخوف ، أو تمليه المصلحة . فالتاريخ المعاصر يثبت مع الأسف أن الاقتصاد الحر لا يستطيع — باستثناء فترات الحروب — أن يكف عن إنتاج ملايين المتبطلين . وهكذا كلما نجحت الصناعة الآلية (الأوتوماتيكية) وزادت إنسانيتها كلما زاد عدد المتبطلين . «وبالاختصار

لا تستطيع الآلية (الأوتوماتيكية) أن تثمر إلا فى نظام يتمتع فيه المنتجون الذين يعملون وقتا قليلا بحق العمل فى المهنة أو المهن التى يصلحون لها ، ويتمتعون فيه أيضا بحق استهلاك تلك المنتجات وفقا لحاجاتهم . »

تلك هى بعض المشاكل البشرية فى الصناعة الآلية . ويدرس فريدمان فى هذا الكتاب طائفة أخرى من المشاكل أستطيع أن أقول إنها الحكمة بعينها والاجابة على لغز أبى الهول الحديث .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

شاعر مصرى

هو شاعر من شعراء الطبيعة الذين خلفوا لنا تراثاً طريفاً فى هذا الباب من أبواب الشعر العربى . وهو ليس من شعراء مصر الحديثة ، وإنما هو من شعراء مصر الفاطمية ، وهو الشريف العقيلى . كان فى المائة الرابعة للهجرة وعاش دهراً فى المائة الخامسة . وهو من بيت عقيل بن أبى طالب ، وإليه ينسب . وكان — على ما يروى الرواة — ثريا ثراء مفرطاً ، حتى قالوا إنه كان يملك متنزهات خاصة به فى الفسطاط . وقد جعله هذا الثراء فى غنى عن خلفاء عصره وملوكه ووزرائه ، فلم يشتغل بخدمة سلطان ولا بمدح أحد .

شاعر يغنى لنفسه ، وقلما نجد فى العربية شاعراً من هذا الضرب الذى ينظم لنفسه ويغنيها ، دون عناية بمن حوله أو بمن فوقه . بل إن كبار الشعراء الذين نقرؤهم ونردد أسماءهم ونعنى ببحثهم ودرسهم أكثرهم من هؤلاء الذين كانوا يلزمون أبواب الخلفاء والأمراء والوزراء يصوغون الشعر فى مديحهم ويجزلون لهم من أجل ذلك فى العطاء .

لم يكن الشريف العقيلى يتكسب بشعره ، ولم يكن يطلب به عرضاً من أعراض الدنيا الزائلة ، إنما كان يطلب به التنفيس عما يعتلج فى نفسه ، بل التعبير عما يضطرب فى قلبه من خواطر وأحاسيس ، لا يستطيع أن يمسكها ، فيتناول الريشة مضطرا يرسمها ويسجلها فى أروع صورة من صور الشعر والفن .

ولعل فى هذا الشاعر وشعره ما يصحح من بعض الوجوه رأى بعض النقاد فى مصر وشاعريتها أثناء العصور الوسطى . فطائفة منا لا تكاد تعتقد أن مصر بيئة صالحة للشعر ، أو على الأقل بيئة تصلح لانبات شعراء ممتازين . وأكبر الظن أن فى هذا الشاعر ما يحملنا على أن نفكر فى آرائنا التى نعطيها فى بعض الأحيان صفة الاطراد والتعميم .

ولم يكن الشريف العقيلى وحده الشاعر الممتاز فى العصر الفاطمى ؛ فهناك مجموعة كبيرة من الشعراء المصريين لهذا العصر كتب فيهم العماد الأصبهانى مجلداً ضخما من خريدته . وبدار الكتب المصرية نسخة من هذا المخطوط فى حاجة إلى أن تدرس درساً يصورها ، أو بعبارة أدق يصور لوحة الشعر الفاطمى وما بها من خطوط وألوان وما نثر الشعراء فيها من ظلال وأضواء .

ولم تصور الخريدة كل ما تركته مصر الفاطمية ، إنما صورت المائة الأخيرة من

هذا العصر، على حين صورت اليتيمة للثعالبي الثمانين الأولى . ثم جاء كتاب المغرب لابن سعيد فأضاف إلى الصورتين طرائف جديدة . ومن تلك الطرائف صحف بديعة من شعر الطبيعة ساقها للشريف العقيلي . ونحن لانكاد نلم بهذه الصحف . حتى نحس أننا ندخل عالما جديدا ، وهو عالم له بهجة ومسرة ، وإنه ليقرب فى بعض جوانبه من عالم المتصوفة . ولكن لا تظن أنه عالم متصوفة حقا ؛ فهو عالم من نوع آخر ، عالم لايتحدث فيه الشاعر عما وراء الطبيعة ، وإنما يتحدث عن الطبيعة نفسها . ولكن لا نسترسل فى قراءة هذا الحديث حتى تغمرنا نشوة من الفرح تشبه نشوتنا حين نقرأ شعر المتصوفة . ولعل مرجع ذلك أن الشريف كان مفتوناً بالطبيعة فتنة كادت تكون عبادة . ومن هنا كنا نحس الشبه بينه وبين المتصوفة ؛ فشعره فتنة وعبادة ، بل فناء أيضاً . فهو يغنى فى الطبيعة ومباهجها ، وهو يستغرق فيها استغراقاً كأنه استغراق المتصوفة فى محبوبهم .

ليس الشريف العقيلي متصوفاً بالمعنى الذى نألفه للتصوف ، إلا إذا أوسعنا هذا المعنى وجعلناه يشمل كل فناء فى المحبوب واستغراق فيه . ومن غير شك كان الشريف محبا للطبيعة محبة قلما تصادفنا عند شعراء العربية ؛ فهم فى أغلب الأمر حسيون قلما تجاوزوا ما وراء الظاهر فى الطبيعة ، وقلما شغفوا بها هذا الشغف الذى نجده عند هذا الشاعر المصرى الذى كانت تروعه مناظر مصر فى العصر الفاطمى روعة بالغة ، فاذا هو ينادى بأعلى صوته فى الناس من حوله أن ينكبوا على متع الطبيعة ومفاتنها ، وأن يأخذوا بأكبر حظ من هذه المتع والمفاتن . وقد كان يقرن هذه الدعوة الحارة بدعوة أخرى ولكن لا إلى الطبيعة بل إلى الخمر وكئوسها ، وكأنه كان يريد للناس أن يعبوا ما شاءوا من كئوس الخمر فان تركوها فالى كئوس الطبيعة . وهكذا كان يرى أن الحياة تأتلف من الطبيعة والخمر ، وأن من لم ينعم بالنوعين من الخمور حق عليه ألا يسلك نفسه فى الأحياء والحياة . وما الحياة بدون طبيعة وخمر فى رأيه ؟ إنها تصبح شقاء خالصاً .

وهذا النزع من المزج بين الخمر والطبيعة عند الشريف جعل لشعره صورة خاصة ؛ صورة فيها نشوة وفرح ومسرة . ويساق ذلك كله فى شعور غريب هو شعور الانطلاق بعد الحبس . فالشاعر يفرح أمام مناظر الطبيعة ومشاهدها فرحاً غريبا ، هو فرح الأسير يتنفس نسيم الحرية بعد طول العذاب .

وقد كان بعض النقاد يشك فى أن العرب تركوا شعر طبيعة على نحو ما هو معروف عن شعراء أوربا فى أوائل القرن التاسع عشر. غير أننا لا نقرأ فى الشريف حتى نحس أن العرب تكامل لهم من بعض الوجوه الشعور بالطبيعة شعوراً فيه تدفق وإيمان بها وحب لها ، حتى ليشبه هذا الحب — أو يكاد — حب المتصوفة .

وإذا كان المتصوفة يعبرون عن حبهم بغزل وخمر ، فان الشريف أيضاً يعبر عن حبه للطبيعة بغزل فيها وخمر . أما غزله فيتراءى فى فتنته بمناظر الطبيعة فتنة تجعلنا نشعر أنه يهتز أمامها اهتزازاً يعم كيانه كله ، حتى لنحس أنه ينتفض بين أزهارها وأشجارها وبركها وجداولها ومياهها كما ينتفض العصفور بلله القطر . وأما خمره فتتراءى فى كل مكان من شعره إذ يدعو إليها دائماً فى حماسة بالغة . واستمع إليه يقول :

اشرب على وجه أرض
لها من الماء خد

لم تلقه الريح سبطا
إلا انثنى وهو جعد

ويقول :

فهات زواهر الكاسات ملأى
إلى الحافات بالذهب المذاب
فكير الجو يوقد نار برق
إذا خمدت تدخن بالضباب

ويقول :

السحب ترضع من نبات الأرض ما
جعل الربيع لها الغصون مهودا
والراح قد نظم المزاج لجيدها
در الحباب قلائدا وعقودا

ويقول :

أمهات الثمار بين الروابى
تائهات بلبس خضر الثياب
وبنات الكروم تجلى بما قد
صاغه الماء من عقود الحباب
فاله ما دام للشقيق خلوق
تنثر السحب فيه مسك ضباب

ويقول :

البرق طرز والغمام ستائر
والقاش درج والنبات جواهر
فاشرب عليه واسقنى من قبل أن
يطوى من الديباج ما هو ناشر
بكر إذا شجت رأيت لوجهها
عرقاً يكلله جبين زاهر

ويقول :

الغيم ممدود السرادق
والزهر مفروش النمارق
والقاش قد نقشت لنا
منه المجالس والمرافق
أشجاره وثماره
مثل الترائب والمخانق
قد غنت الأطيار فى
طرقاته كل الطرائق
فاعتق فؤادك فيه من
رق الهموم بشرب عاتق
فالأقحوان غصونه
بيض النواصى والمفارق
ومراود الأمطار قد
كحلت بها حدق الحدائق

وواضح فى كل هذه القطع أن الشريف العقيلى يمزج بين الطبيعة والخمر ؛ فهو يعب من الخمر ما يعب ، ثم ينقلب إلى الطبيعة فيعب منها أيضاً ما يعب ، وهو دائماً يتقلب بين هذين الضربين من كؤوس الخمر .

وهذه الصورة من المزج بين الطبيعة والخمر أو قل الدعوة إلى الطبيعة والخمر هى التى تميز شعر الشريف العقيلى . فغيره من الشعراء لهم خمريات ، ولكن قلما قرأنا فى خمرياتهم دعوة إلى الطبيعة . وغيره من الشعراء لهم شعر طبيعة ولكن قلما قرأنا فى شعر الطبيعة عندهم دعوة إلى الخمر .

ولعل هذا أهم فارق بين الشريف وغيره من شعراء الطبيعة الذين عاصروه أو سبقوه . فعنده لا فرق بين الطبيعة والخمر ، ونحن نجد عند شعراء الشام فى القرن الرابع حديثا عن الخمر أثناء نزول الثلج وفى بعض الرياض ، ولكنا لا نجد عندهم هذه الرغبة الشديدة فى المتعة بالطبيعة ، حتى ليحاول الشاعر أن يفنى فيها فناء كما يفنى هو وكما يفنى غيره فى الخمر .

وهذا هو الشئ الطريف فى شعر الطبيعة عند الشريف ؛ إذ نراه غارقاً فى مباهج الطبيعة يريد أن يرمى نفسه على صدرها

وفى أحضانها حتى يشعر بالمتاع الحقيقى فى الحياة . وأى متاع أجمل من متاع الطبيعة ومتاع الربيع بنوع خاص ، وإن الانسان ليحس عنده حينما تتفتح أنوار الربيع كأنما انطلقت أبواق من كل جهة تصيح فى أذنه أن يأخذ بنصيبه من هذا السرور الذى تنثره الطبيعة من حوله .

ويلبى الشريف هذا النداء ، ويخرج من عالمه إلى هذا العالم الجديد عالم الطبيعة يستقى من منابعه فتجرى فى عروقه نشوة غريبة لا تلبث أن تجعله يصيح فيمن من حوله أن يتركوا عالمهم وينطلقوا معه فى هذا العالم الجديد لينعموا بكل ما فيه من مفاتن ومباهج . وإنه ليصيح فى رقة ولهفة وحنو ، وهى مشاعر تتوارد عليه مع حلاوة أنفاس الحقول ، فيحس برغبة تدفعه دفعاً إلى أن يأخذ بحظه من كؤوس الخمر ، فالحياة من حوله خمر خالصة

وليس كل ما نجده عند الشريف إغراء بالطبيعة ومسراتها ؛ فنحن نجد عنده إغراء بالفن والشعر والمتاع بهما متاعاً لا يقل عن المتاع بالأصل وما فيه من فتنة . ومن هنا كان شعره يرتفع إلى الآفاق العليا من الشعر الذى يتدفق بالاحساس والشعور كما يتدفق بالفن وصوره .

ولعل أهم ما يميز صور الفن عند الشريف أنها صور حية ، فهى تفيض بالحركة كما تفيض بالبهجة ؛ فقد دبجها شاعر كان صبا بحب الطبيعة ، وكان يجد فى كل خفقة من خفقاتها وكل همسة من همساتها حلماً غريباً ما يلبث أن يخرجه فى شبح من أشباحه أو صورة من صوره التى لا تفنى والتى ما تزال تتجدد أمامنا حتى لكأننا فى دار من دور الصور المتحركة فدائماً نرى أشكالا جديدة من شخوص ووجوه ، وهى وجوه وشخوص كلها ضاحكة مستبشرة . وكان يسعفه فى خلق هذه الوجوه والشخوص مقدرة ممتازة على التجسيم والتشخيص والتجسيد ، والتجميع والحشد والتركيز . واستمع إليه يقول :

انظر فقد صار نعام الربى
من نعم السحب طواويسا

وليس من ريب فى أن هذه صورة بديعة ، وهى تدل على ريشة فنان حقا ، فنان يعرف كيف يجسم ويجسد ، وكيف يجمع ويركز ويحشد . فالربى تتحول فى مخيلته إلى نعام أبيض أو أسود ، وتنزل السحب ويعم المطر الكون من حوله ، فينظر وإذا نعام الربى تجرى فى ريشه وأجنحته خطوط زاهية غريبة ، وما هى إلا هنيهات حتى يتحول هذا النعام فى مظهره ومخبره فاذا هو طواويس يغرق البصر فى ألوانها وأصباغها البراقة الزاهية .

وعلى هذا النحو كان الشريف يعرف كيف يرسم مناظر الطبيعة ، وكانت تسعفه فى ذلك « كامرا » عجيبة أو مخيلة غريبة فاذا المناظر الواسعة ما تزال تتجمع وتتركز ، وما تزال تتخول تحولا يلعب فيه الخيال والوهم . واستمع إليه يقول فى مطلع الربيع :

قد بيضت قبة السماء
وزوقت قاعة الفضاء

فهو يتمثل السماء ذات السحب البيضاء وقد امتدت أطنابها على الأفق من كل جانب ، يتمثلها بقبة بيضت . أما الربيع بأزهاره وأنواره فيتمثله قاعة عبقة متألقة قد نقشت ونمقت ، وهو يدعو من حوله أن يندسوا فى هذ القاعة تحت تلك القبة وينعموا بما نمم الربيع وصور ، وما زين وزخرف .

وفى كل مكان من شعر الشريف نجد هذه الصور الغريبة التى تدل حقا على شاعرية متأصلة فيه ، كما تدل على شعور طافح

بالطبيعة ومحبة لا توصف بمفاتنها . وأكبر الظن أننا لا نبعد حين نزعم أن الشريف يعتبر فى الرعيل الأول من شعراء الطبيعة عندنا ، إذا كنا نريد بشعر الطبيعة معناه الصحيح من اندماج الشاعر فى الطبيعة اندماجا ينسيه نفسه ، فاذا هو مسحور بمشاهدها ومناظرها سحراً ما يزال ينفث فى عقده ما يرى من بدائع الكون وروائعه .

وهذا هو الشئ الطريف حقا عند الشريف العقيلى ؛ فهو مسحور بالطبيعة سحراً لا ينتهى ، وهو يقف من حين إلى حين أثناء هذا السحر ، فيصف بعض ما يرى ويشاهد . وإنه ليرى ويشاهد غرائب وعجائب من مثل طفل الصباح الذى رآه يحبو بين « دايات » الرياح :

قد حبا طفل الصباح
بين دايات الرياح

ويحس الانسان عند الشريف دائماً كأن عنور الطبيعة وأشباحها لا تحصى . وقد كان يرفده فى ذلك مدد واسع من خيال خصب ، كما كان يرفده مدد واسع من شعور مرهف . والانسان لا يطيل النظر فيه حتى يتمنى أن لو كان له مثل ذلك الخيال وذلك الشعور . وانظر إليه يقول :

وروضة كالحلة الخضراء
غازلته ببركة حسناء
قد لبست عقد طيور الماء
لبس السماء أنجم الجوزاء

ولا شك فى أن هذا العقد الذى صوره أو قل نظمه حول جيد البركة عقد بديع ، ولعل فيه آية أخرى على ما وصفنا به الشاعر من القدرة على الحشد والتركيز . والحق أن الشريف العقيلى شاعر من طراز خاص ، وهو طراز قلما تصادفه فى العربية ؛ لأن أكثر الشعراء عندنا يشغلون عن شعورهم وعن الطبيعة من حولهم بمديح الملوك والأمراء والوزراء . أما الشريف فانه لم يكن يعنى بمديح أحد ، إنما كان يعنى بنفسه والتعبير عن شعوره بجمال الطبيعة من حوله ، لا يستلهم فى ذلك شيئاً سوى حب صادق للطبيعة . والغريب أن حبه لها ساقه إلى حب الخمر ، فالخمر والطبيعة فى رأيه شئ واحد . إنه يجد فى كؤوس الطبيعة ما يجده فى كؤوس الخمر ، بل لعل نشوته بالطبيعة كانت أعمق وأبعد غوراً من نشوته بالخمر . وكان لا ينسى النشوتين جميعاً حتى فى غزله . واسمعه يقول :

قامت قيامة روحها لرواحى
إن النوى لقيامة الأرواح
فبكت فصار الدمع فى وجناتها
مثل الحباب على كؤوس الراح
فكأن صفحة وجهها لما بكت
روض يرصع ورده بأقاحى

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصع من أنوار وأزهار ، وهو القرار العام لشعره ؛ فهو شاعر الرياض ومباهجها ، أوقل الطبيعة ومفاتنها ، وقد ظل طوال حياته يتغنى بها وبألوانها وأصباغها ، فقد كان محبا لها ، مفتوناً بها ، وزاده حبا وفتنة أنه كان من ذوى العيون الشاعرة التى تتحرك أمامها فى الطبيعة أشباح وأشخاص لا تحصى ، ورؤى وأحلام لا تفنى ، وقد ذهب يثبت فى شعره ما رأى من هذه الرؤى والأحلام ، وتلك الأشباح والأشخاص ، وشفع ذلك بكل ما استطاع من تمثيل وتصوير وتلوين وتظليل .

شوقى ضيف